افتتاحية العدد

رؤية ثقافية لتطوير مجلات جامعة دمشق*

أ. د. وهب رومية

السادة الحضور : أسعد الله أوقاتكم.

أرجو ألا يتوقع أحد أن أقوم بدور الميكانيكي الذي يصلح أعطال السيارات، فهذا دور لا أرتضيه لنفسي لاعتماده على النظرة الجزئية الضيّقة، ولغياب النظرة الشمولية عنه. ولعل الأولى أن أقوم بدور المهندس الذي يصمّم السيارات.

وبناء على ذلك ليس من هموم حديثي إليكم تقديم حلول جاهزة ناجعة لمجلات جامعة دمشق عامة، أو للمجلة التي أشرف برئاسة تحريرها، فليست هذه المجلات سوى تجلّيات للثقافة الوطنية والقومية الراهنة في الجمهورية العربية السورية. إنها أغصان في شجرة الثقافة، فإذا كنا نريد أن نتحدث عنها حديثاً علمياً رصيناً كان علينا أولاً أن نتحدث عن الثقافة حديثاً مقتضباً. ولكنه – على اقتضابه - لا تنقصه الدقة أو العمق.

يعلّمنا التاريخ والفلسفة أن تغيير الواقع مرهون بأمرين، أولهما: قراءة هذا الواقع قراءة تحليلية موضوعية، وثانيهما: الإرادة المصممّة على تغيير هذا الواقع، وتحدّي شروطه التاريخية، وهذا التحدّي هو الذي يمنح الإنسان جدارته بالإنسانية. لا يكفي أن نعرف الواقع ونفسره كما كانت تفعل الفلسفة قديماً، بل ينبغي أن نغيرّه. ومنذ أكثر من قرن ونصف قال ماركس قولته المشهورة: لقد آن للفلسفة أن تكفّ عن تفسير العالم فحسب، وأن تبدأ بتغييره.

ماذا نقصد بالثقافة؟ وكيف نقرأ واقعنا الثقافي اليوم؟

تتكوّن الثقافة – كما حدّدها التفكير العلمي – من ثلاثة أبنية هي: البناء العلمي، والبناء الفكري، والبناء الفني.

---

* نص المداخلة التي قدمها رئيس التحرير يوم 2014/4/3 في ختام أسبوع النشر العلمي.

وليس الموطن هنا موطن تفصيل في كل بناء من هذه الأبنية.

أما واقعنا الثقافي فسأقرؤه قراءتين، أولاهما من داخله، والثانية من خارجه.

قراءته من داخله:

نستطيع القول بقدر من التعميم: إن إحدى مشكلاتنا هي أننا لا نملك حضارة الغرب، ولكننا نعيش على أبوابها كالمتسوّلين. نحن لا ننتج الثقافة، ولكننا نستهلك ثقافة الآخر. ونحن مغتربون إمّا في ماضينا الذي نعجز عن وصله بالمستقبل، وإمّا في مستقبل ليس مستقبلنا لأنه من صناعة الآخر. أي نحن مغتربون في الماضي الجميل، أو نحن مغتربون عن أنفسنا، وعن عصرنا في ذوباننا في الحضارة الغربية. وبين الاغتراب والاستلاب والذوبان تنشأ **المشكلة الأهم** " **مشكلة الهوية** ". إن مشكلة الثقافة العربية اليوم هي "**مشكلة هوية**". من نحن؟ سؤال واكب عصر النهضة. - وهو اليوم سؤال مشروع كما كان مشروعاً في عصر النهضة - فرأى أصحاب الفكرة القوميّة الدّين عاملاً ثقافيّاً يغذّي القومية، ورأى أصحاب الفكرة الإسلامية القومية إنتاجاً غربياً وهرطقة. وتمثل خطاب عصر النهضة بفرعيه القومي والإسلامي النصوص التراثية دون وعي نقدي لها، ورآها نماذج تامّة للوعي الإصلاحي والعلماني. وقد أدّت المناقشات التي دارت، وما تزال تدور، حول مفهوم الهوية – على المستوى الفكري العام – إلى التخبّط في المجرّدات، وعلى مستوى الصراع الحضاري بين الشرق والغرب إلى مختلف الاتجاهات المتعصّبة السوداء. **وفي هذا الصراع الأعمى تتحلّل الأمة إلى عواملها** الأوليّة من دينيّة ومذهبيّة وطائفيّة وعشائرية وقبلية وجهوية وأسرية .... أي تتحلل الأمة إلى البنى التقليدية التي تسبق مرحلة نشوء الدولة !!

وفي هذا المناخ الثقافي البائس المشوّه يسيطر الوعي الزائف على المجتمع، وتزدوج القيم كما تزدوج المعايير، ويفقد العمل قيمته، كما يفقد الصواب كرامته، ويغيب عن العملية النقدية الحقيقية التحليل والمقارنة والحكم. كما تغيب النزاهة والعدل. وفي هذا المناخ تنشأ منافسة قذرة بين القيم الوطنية والقيم العملية المصلحية،

ويشتد اللغط، ويعلو الضجيج لأننا اقتربنا من "دائرة المصالح" حيث لا رحمة ولا إنصاف، وحيث يسود منطق الشللية واقتسام الغنائم!! وتعلو موجة الاتّهامات المتبادلة التي تكاد تُغرق (الحقيقة) في لجّتها وتطويها إلاّ عمّن عصم ربّك وقليل ما هم.

إن المجتمع العربي جزء من العالم الثالث "الهامشي" وليس مجتمعاً حديثاً على الرغم مما جرى فيه من تقدّم وحداثة، وإن علاقات التبعية لا تؤدي إلى الحداثة، بل إلى مجتمع ملقّح بالحداثة. وفي إطار الرأسمالية الهامشية تعذّر نشوء طبقة بورجوازية تامة النمو، وتعذّر نشوء طبقة عاملة حقيقية، فكان أن نشأت طبقة هجينة تحوّلت إلى طبقة مهيمنة منذ أواسط القرن العشرين سميّت "البرجوازية الصغيرة"، وهي طبقة وطنية، ولكن تكوينها بنيوياً ينطوي على قيم ونزعات متناقضة، وهي تتعايش داخل هذه التناقضات على الصعيد الاجتماعي، ولها ممارسات متناقضة على الصعيد العملي، وهي أيضاً تنتج على الصعيد الذهني وعياً غامضاً ومتضارباً. هذه الطبقة الهجينة نشأت في الريف والمدينة، وظلّت مرتبطة بأصولها الريفية والمدينية. ولعل أبرز ما يميزها هو اتجاهها نحو الاستهلاك، وازدواجيتها الإيديولوجية، وانتهازيتها، والتناقض بين أقوالها وأفعالها. والغريب أن هذا التناقض الصارخ لا يحدث أي توتر أو مشكلة في الوعي الفردي. هذه هي الظروف التي يعيش فيها الكاتب السوري والعربي عامة، إنها ظروف الوعي الزائف، والتشوهات الثقافية والاجتماعية. في الغرب والشرق هناك خيارات واضحة تفرضها نظم سياسية حديثة قوية لها تقاليدها وطموحاتها، ويفرضها تراث حيّ، أما في الوطن العربي عامة لا في سورية وحدها فالقديم شبه مجهول، أو مقروء قراءة خاطئة، والجديد ضعيف مترنّح، والتحديات كثيرة وضخمة. ولكن الاحتمالات كثيرة جداً.

نحن نتشدّق كثيراً باسم التاريخ حتى نكاد ننسى الحاضر، ونستنجد بأخطاء الماضي، ونتوهم أن التاريخ يقدّم لنا السند والدليل، ويغيب عنّا أن التاريخ أكثر هشاشة مما نظن.

هذه هي قراءة الواقع السوري والعربيّ من داخله، أما قراءته من خارجه فقضية معقدّة جداً، ومتشعّبة جداً تتضارب فيها المصالح، وتتناقض الرؤى. ولكن ما ينبغي أن يكون موضع اتفاق هو بروز ظاهرة العولمة التي تحاول اكتساح العالم بأشكالها المختلفة الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية، والثقافية. تحاول العولمة الثقافية نشر قيم الثقافة الأوروبية والأمريكية خصوصاً ومبادئها، وجعلها نموذجاً كونياً، وتعميمها عالمياً، وهي بذلك توحّد الثقافة العالمية، وتنمطّها على حساب الثقافات الوطنية للشعوب المختلفة، وفي ذلك إفقار شديد للثقافة الإنسانية. إن تذويب الثقافات الوطنية في ثقافة العولمة يلغي الشخصية التاريخية للشعوب، ويفرض عليها التبعيّة، وبذلك يسهل تفكيك المنطقة سياسياً وجغرافياً، وإعادة تركيبها على الطريقة الأمريكية.

إن نفي ثقافات الشعوب وتهميشها وإقصاءها هي ما تحاول الإمبريالية الأمريكية تحقيقها ليل نهار. فهل تملك الثقافة العربية مقاومة هذا النفي والإقصاء والتهميش؟.

هذه قراءة موضوعية تحليلية مقتضبة جداً للواقع السوري خاصة كما أراه. قد تكون قراءة محبطة حقاً، ولكن الإحباط البصير خير من الأمل الأعمى. هل نملك الإرادة لتغيير هذا الواقع؟ وكيف؟.

سأصرف حديثي إلى الثقافة منصرفاً عن الجوانب الأخرى، وسأقدّم مجموعة من الرؤى لعلها تظفر بالنقاش.

أولاً: علينا أن نخرج من ثقافة الاجترار إلى ثقافة الإبداع، ولا فرق في ذلك بين اجترار ثقافتنا الماضية أو اجترار ثقافة الآخرين، أي علينا أن نكون منتجين للثقافة لا مستهلكين لثقافة الآخر.

ثانياً: علينا أن نكفَّ عن العمل في تاريخ العلم، وأن نعمل بدل ذلك في " العلم " نفسه. إن الحديث عن تاريخ العلم هو حديث عن الماضي الذي لا يتغيّر، أما الحديث عن "العلم" فهو حديث عن الحاضر و المستقبل القابلين للتغيّر الشديد.

ثالثاً: ضرورة تنمية " الموقف النقدي" لدى الباحثين، وهذه هي الوظيفة الأولى والأهم للجامعة بعد أن سيطرت نزعة التلقين والحفظ الببغائي على مراحل التعليم قبل الجامعة على نحو يذكّرنا بنظام الكتاتيب في مطلع القرن الماضي.ومن المتعذّر بل المستحيل أن يتبلور وعي اجتماعي خلاّق إذا لم يكن قائماً على فكر نقدي.

إن الأوضاع الراهنة تتطلب نظرية نقدية واضحة تتيح نشوء وعي اجتماعي جديد. علينا أن نتخذ موقفاً نقدياً من ماضينا وحاضرنا، وما تاريخنا في جانب كبير منه إلا مجموعة حكايات شعبية مبالغ فيها، ولأننا مجتمع ضعيف ومتخلّف فإننا في حاجة إلى تاريخ مملوء بالأمجاد والبطولات. إن الشعوب الضعيفة كشعبنا تحتاج كي تخرج من حاضرها المرير إلى تصوير ماضيها حسب حاجات حاضرها.

لقد بشّر "طه حسين" منذ النصف الأول من القرن الماضي بمذهب "الشك"، وحقّق هذا المذهب تغيراً في بنية العقل العربي، فكسر حدّة ولائه للمذهب "النقلي"، ووضع كثيراً من الروايات التاريخية التي استسلم لها الناس موضع الشك والمراجعة والنقد، وآن لنا أن نطوّر هذا الموقف إلى موقف نقدي شامل، ونعيد النظر في تاريخنا وحاضرنا وذواتنا وثقافتنا، وفي تاريخ الآخر وذاته وثقافته دون شعور بالاستعلاء أو الدونيّة، أي أن نمارس هذا الموقف النقدي من موقف "النديّة" من الآخر، أي من الشبيه/ المختلف.

رابعاً: وضع استراتيجية ثقافية وطنية قومية تحمي ثقافتنا وتنّميها بالمثاقفة مع الآخرين، ويجب التقيد بهذه الإستراتيجية في كل المؤسسات الثقافية.

خامساً: تصحيح موقفنا من " العلم "، فنحن نعترف بضرورة " العلم " بوصفه أدوات وآلات ووسائل انتاج، ولكن دوره بوصفه نظرة تحليلية ثانوي ولفظي.

سادساً: حاجتنا الماسّة إلى الفكر الواضح، والإحساس المباشر بالواقع، والعمل الدؤوب المخلص النزيه.

سابعاً: ضرورة التمييز بين المثقفين، فليس هؤلاء طبقة اجتماعية واحدة لها مصالحها ورؤاها المشتركة، ولكنهم فئات موزّعة على كل الطبقات، والكثير منهم أشبه بأصحاب الدكاكين يبيعونك البضاعة التي تريد، والانتهازية تملأ نفوسهم، ولذلك وصفهم "لينين" بالرخاوة، وقد فرّق "غرامشي" تفرقة دقيقة بين هؤلاء الانتهازيين وبين " المثقف العضوي - كما سمّاه - الذي يلتزم قضايا أمته.

هذا هو تصوّري للعمل الثقافي إذا أردنا أن ننتج ثقافة عربيّة لقراء عرب يفهمون ما يقرؤون، ويشعرون بانتمائهم إليه. وهذا هو ما أتمنى تحقيقه في مجلاّت جامعة دمشق. واسمحوا لي أن أقدّم في سبيل تحقيق هذا التصور الاقتراحات التالية:

1- تنمية الموقف النقدي وتعميقه في أبحاث المجلات كلها بلا استثناء لأنه السبيل الوحيد لتقدّم العلم ونموّ المعرفة. إن الإنسانية قاطبة تدين لهذا الموقف بكل ما تنعم به من اكتشافات ومخترعات، ولولاه لظل البشر يركبون الدواب، ويتداوون بالكيّ والأعشاب، ويسكنون الأكواخ المظلمة، ولظلّت الطبيعة مصدر خوف وتهديد للبشر لأنها مملوءة بالطلاسم.
2- الكفّ عن البحث في تاريخ العلم، والبحث في العلم نفسه.
3- تغليب الكيف على الكم، فليس المهم كثرة الأبحاث، بل المهم نوعيّتها وعمقها.
4- أن تكون الأبحاث في العلوم الإنسانية (تاريخ – أدب – نقد - علم اجتماع - ....) مطبوعة بطابع عربي. أي أن تكون أبحاثاً عربية أصيلة لقرّاء عرب، وهذا يستدعي تمثّل ثقافة الآخر وهضمها وتحويلها إلى جزء من نسيج الثقافة العربية. كل الفلسفات الكبرى في التاريخ انطبعت بالطوابع القومية للشعوب : الاشتراكية – الإسلام – المسيحية.
5- الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والمعرفية المعاصرة، وما أكثر الموضوعات الاجتماعية التي تنتظر البحث!
6- الاهتمام بالبحوث الميدانية اهتماماً لا يكتفي بالمنهج الوصفي بل يتجاوزه إلى المنهج التحليلي، أو التحليلي التاريخي، أو التفكيكي، أو البنيوي التوليدي، أو... وتفسير هذه البحوث تفسيراً علمياً نقدياً.
7- اعتماد صيغة "فريق البحث" ولاسيّما في البحوث الاجتماعية والطبية والزراعية.

8- ربط الأبحاث الميدانية ربطاً فعلياً بحاجات المجتمع في قطاعاته المختلفة : الخاص والعام والمشترك. أي أن تقدّم هذه الأبحاث تصوّرات علمية أو حلولاً للمشكلات التي تطلب هذه القطاعات دراستها: في الصيدلة والزراعة والريّ وشؤون الأسرة، ومشكلات الشباب، وسوى ذلك كثير، ويجب أن ترسل هذه الأبحاث إلى الجهات المختصة لدراستها، وإبداء الرأي فيها.

9- توفير جوّ من الحريّة للباحثين، وعدم التخوف من إجراء أية بحوث مهما تكون حساسة اجتماعياً أو سياسياً، فلا توجد محظورات في البحث العلمي بشرط أن يكون موضوعياً ونزيهاً.

10- التزام قواعد البحث العلمي وأخلاقياته.

11- العناية باللغة العربية الوسطى الفصيحة لا بلغة المعاجم والمتون القديمة، وذلك لأن هذه اللغة هي المعبّرة عن روح الأمة ونظرتها إلى العالم. إن اللغة لا تزدهر أو تنحط من تلقاء نفسها، ولكنها تنحط بانحطاط أهلها، وتزدهر بتقدمهم وازدهار حضارتهم. ولم يكن من الممكن أن تنتشر اللغة الإنكليزية كل هذا الانتشار لولا التقدم الهائل الذي أحرزته الدول الكبرى الناطقة بها. وما كان للغة العربية أن تكون لغة العلم والثقافة في عصور مضت لولا ازدهار الحضارة العربية في تلك العصور. وعلاقة اللغة بالفكر والثقافة علاقة وطيدة جداً، وحديثها يحتاج إلى وقت طويل، ومناقشات مستفيضة.

السادة الحضور:

قد يكون فيما قدمت قدر من التشاؤم، ولكن تشاؤم العقل لا يقاومه إلا تفاؤل الإرادة.

المراجع المعتمدة:

شكري محمد عياد: دائرة الإبداع « مقدمة في أصول النقـد» . دار اليـاس العصرية / القاهرة بلا تاريخ.

هشام شرابي : البنية البطركية (بحث في المجتمع العربي المعاصـر) دار الطليعة للنشر / لبنان 1987م

المثقفون العرب والغرب. ط2 دار النهار للنشر / لبنان 1978

وهب رومية: من قضايا الثقافة . وزارة الثقافة. الهيئـة العامـة للكتـاب / سوريا 2013م.